المحور الأول: واقع الجزائر بأعين الرحالة

يعد القرن 19 قرن الرحالات إلى الجزائر، يشهد على ذلك وفرة التأليف في أدب الرحلة الذي وصف يوميات الرحالة و مشاهداتهم ومساراتهم ومخاطرالرحلة. وإن كانت هناك رحلات سبقت هذا الزمن بكثير، إلاّ أنها لم تكن معبأة بهذا القدر من الإنتاج المكتوب لأسباب عدة[1] مثلما كانت الرحلات الأخيرة - والتي نحن بصدد الحديث عن إحداها- لها ميزة خاصة، وأهداف تختلف عن تلك التي كانت في زمن قبلها.

لقد تزايد الاهتمام بالجزائر خلال النصف الثاني من القرن 19، مع زيادة الحركة الاستيطانية وعدد المستوطنين وتسارع وتيرة التوسع، حيث فتحت إدارة الاحتلال المجال لكثير من المفكرين والأدباء والفنانين الرسامين للقيام برحلات إلى الجزائر، كان منها استطلاعية استكشافية، وكثير منها كانت بأهداف سياسية، وقد ظهر اهتمام هؤلاء الأدباء والمفكرين بالجزائر فازدادت بذلك تآليفهم ومصنفاتهم، وتضاعفت الكتابات الفرنسية وغير الفرنسية حول الجزائر ومجمل أوضعها دون نسيان العناية بالموازاة بالكتابة أيضا عن دول الجوار- المغرب الأقصى وتونس تحديدا- وكانت أهدافهم مختلفة ومتنوعة من هذه الرحلات وممّا دوّنوه، فمنهم من كان منطلقه المغامرة ومنهم من كان هدفه الاستكشاف لبلاد الشمال الأفريقي- بالنظر لما سمع عنها وما تتوفر عليه من اختلافات في الطبيعة والجنس والواقع، ومنهم من كانت أهدافه مرسومة من قبل الساسة الأوربيين والفرنسيين بالأخص بالإضافة - طبعا- إلى الأهداف الحضارية والدينية[2]، والتي كانت تصب في اتجاه الحفاظ على المصالح الفرنسية، وخدمة توسعاتها المستمرة في الجزائر وتثبيت أقدامها.

استهدفت هذه الدراسات التاريخية والكتابات الأدبية للرحالة تلقين الفرنسيين تاريخ سكان الجزائر و تونس و المغرب - من وجهة نظرهم- و كيف تمت الهيمنة على المسلمين، وترسيخ مبدأ قابلية هذه شعوب للاستعباد والاستغلال، وتأكيد فلسفة الجنس المغلوب .

تعتبر رحلة الأديب والروائي الفرنسي ألفونس دوديه Alphonse Daudet إحدى أهم هذه الرحلات التي دونت تفاصيلا عن الجزائر من خلال عينات تناولها في كتاباته، خاصة منها "المغامرات العجيبة " لترتاران دي تراسكون"(Les aventures prodigieuse de tartarin de Tarascon)" ورسائل من طاحونتي " (Lettres de mon moulin)و "حكايات الاثنين "(Les contes du lundi) في رحلته التي قادته الى مدينة الجزائر والمتيجة والبليدة وملیانة وأرولیون فیل" شلف حاليا"، والتي نقل من خلالها انطباعاته حول المظاهر الطبيعية والبيئة الجغرافية والمناخ السائد، بالمناطق التي حل بها، بالإضافة إلى تفاصيل عن الحياة الاجتماعية لسكان هذه المدن، ومن خلال هذه الورقة البحثية سنحاول الوقوف عند وصف "دودييه" لهذه المناطق، ونخص بالذكر منها مدينة ملیانة.

كما يجب التنبيه إلى قيمة كتابات الرحلة في استخلاص التاريخ، حيث أنّ هذا النوع من الكتابات يقدم لنا وصفا دقيقا ومباشرا من قبل الرحالة والمستكشف لما شاهده وعايشه، لكن تبقى الكتابات الفرنسية – في هذا الشأن- والكلونيالية تحديدا منها محل حيطة وحذر بالنظر للانتقائية التي مارسها بعضهم، وبالمقابل لا يمكننا إغفال الدقائق والتفاصيل التي حاول الرحالة تقديمها في رحلته كتقرير لفائدة بني جنسه وساسته من باب الاستعلامات والجوسسة، مثلما حاول أن يكون نزيها بالنسبة لبني جلدته في رصده للواقع، غير أنّه

كان في الغالب يتهكم ويظهر تخلف المواطن المستكشفة والتقليل من شأنها. إذا تعد هذه الكتابات مصدرا ذا فاعلية في الاطلاع على رؤية هؤلاء الرحالة - على الأقل- ومعرفة مرامي رحلاتهم وتفاصيل تدويناتهم التي ستكرس لفائدة التوسع الاستعمار ببلادنا زمن الاحتلال، مما ينبه على ضرورة الاطلاع عليها وإعادة قراءتها وفق نظرة تاريخية وطنية موزونة.

1- مميزات كتابة الرحالة الفرنسيين:

كان من هؤلاء الرحالة الفرنسيين الأدباء والمفكرون والنواب ، كما تنوعت وظائفهم مثالا- و الرسامون (Jean- andré Peyssonnel)كان منهم الأطباء - بونافون، وجون أندري بيسونيل وأوجين فرومنتين، ومنهم الفلاسفة أمثال ألكسي (Eugène De lacroix) أمثال أوجين دي لا كروا Henri والجغرافيون أمثال هنري دو فييريي (Alexis de Tocqueville)دوتوكفيل الذي سميت عليه ثانوية البليدة (ابن رشد) ، وكذا صنف النواب وقد مثلوا الصنف الأكثر Duveyrier عناية بالحضور إلى الجزائر والكتابة عنها ووصفها ،وقد زاحموا في هذا عدد الأدباء، هؤلاء الأخيرين وغوستاف Théophile Gautier وتيوفيل قوتييهPierre Lotiالذين برز منهم أمثال بيار لوتي يعد القرن 19 قرن الرحالات Guy de Maupassant وغي دو موباسان Gustave Flaubertفلوبير إلى الجزائر، يشهد على ذلك وفرة التأليف في أدب الرحلة الذي وصف يوميات الرحالة و مشاهداتهم ومساراتهم ومخاطر الرحلة. وإن كانت هناك رحلات سبقت هذا الزمن بكثير، إلاّ أنها لم تكن معبأة بهذا القدر من الإنتاج المكتوب لأسباب عدة[1] مثلما كانت الرحلات الأخيرة .

لقد تزايد الاهتمام بالجزائر خلال النصف الثاني من القرن 19، مع زيادة الحركة الاستيطانية وعدد المستوطنين وتسارع وتيرة التوسع، حيث فتحت إدارة الاحتلال المجال لكثير من المفكرين والأدباء والفنانين الرسامين للقيام برحلات إلى الجزائر، كان منها استطلاعية استكشافية، وكثير منها كانت بأهداف سياسية، وقد ظهر اهتمام هؤلاء الأدباء والمفكرين بالجزائر فازدادت بذلك تأليفهم ومصنفاتهم، وتضاعفت الكتابات الفرنسية وغير الفرنسية حول الجزائر ومجمل أوضعها دون نسيان العناية بالموازاة بالكتابة أيضا عن دول الجوار- المغرب الأقصى وتونس تحديدا- وكانت أهدافهم مختلفة ومتنوعة من هذه الرحلات وممّا دوّنوه، فمنهم من كان منطلقة المغامرة ومنهم من كان هدفه الاستكشاف لبلاد الشمال الأفريقي- بالنظر لما سمع عنها وما تتوفر عليه من اختلافات في الطبيعة والجنس والواقع، ومنهم من كانت أهدافه مرسومة من قبل الساسة الأوربيين والفرنسيين بالأخص بالإضافة - طبعا- إلى الأهداف الحضارية والدينية[2]، والتي كانت تصب في اتجاه الحفاظ على المصالح الفرنسية، وخدمة توسعاتها المستمرة في الجزائر وتثبيت أقدامها.

استهدفت هذه الدراسات التاريخية والكتابات الأدبية للرحالة تلقين الفرنسيين تاريخ سكان الجزائر و تونس و المغرب - من وجهة نظرهم- و كيف تمت الهيمنة على المسلمين، وترسيخ مبدأ قابلية هذه شعوب للاستعباد والاستغلال، وتأكيد فلسفة الجنس المغلوب .

تعتبر رحلة الأديب والروائي الفرنسي ألفونس دوديه Alphonse Daudet إحدى أهم هذه الرحلات التي دونت تفاصيلا عن الجزائر من خلال عينات تناولها في كتاباته، خاصة منها "المغامرات

العجيبة " لترتاران دي تراسكون"(Les aventures prodigieuse de tartarin de Tarascon)" ورسائل من طاحونتي " (Lettres de mon moulin)و "حكايات الاثنين "(Les contes du lundi) في رحلته التي قادته الى مدينة الجزائر والمتيجة والبليدة وملیانة وأرولیون فیل" شلف حاليا"، والتي نقل من خلالها انطباعاته حول المظاهر الطبيعية والبيئة الجغرافية والمناخ السائد، بالمناطق التي حل بها، بالإضافة إلى تفاصيل عن الحياة الاجتماعية لسكان هذه المدن، ومن خلال هذه الورقة البحثية سنحاول الوقوف عند وصف "دوديه" لهذه المناطق، ونخص بالذكر منها مدينة ملیانة.

كما يجب التنبيه إلى قيمة كتابات الرحلة في استخلاص التاريخ، حيث أنّ هذا النوع من الكتابات يقدم لنا وصفا دقيقا ومباشرا من قبل الرحالة والمستكشف لما شاهده وعايشه، لكن تبقى الكتابات الفرنسية – في هذا الشأن- والكلونيالية تحديدا منها محل حيطة وحذر بالنظر للانتقائية التي مارسها بعضهم، وبالمقابل لا يمكننا إغفال الدقائق والتفاصيل التي حاول الرحالة تقديمها في رحلته كتقرير لفائدة بني جنسه وساسته من باب الاستعلامات والجوسسة، مثلما حاول أن يكون نزيها بالنسبة لبني جلدته في رصده للواقع، غير أنّه كان في الغالب يتهكم ويظهر تخلف المواطن المستكشفة والتقليل من شأنها. إذا تعد هذه الكتابات مصدرا ذا فاعلية في الاطلاع على رؤية هؤلاء الرحالة - على الأقل- ومعرفة مرامي رحلاتهم وتفاصيل تدويناتهم التي ستكرس لفائدة التوسع الاستعمار ببلادنا زمن الاحتلال، مما ينبه على ضرورة الاطلاع عليها وإعادة قراءتها وفق نظرة تاريخية وطنية موزونة.

Guy de وغي دو موباسان Gustave Flaubert وغوستاف فلوبيرThéophile Gautierقوتييه Maupassant

كان من هؤلاء الرحالة الفرنسيين الأدباء والمفكرون والنواب ، كما تنوعت وظائفهم كان منهم الأطباء - بونافون، وجون أندري بيسونيل (Jean- andré Peyssonnel)مثالا- و الرسامون أمثال أوجين دي لا كروا (Eugène De lacroix) وأوجين فرومنتين، ومنهم الفلاسفة أمثال ألكسي دوتوكفيل Alexis) (de Tocquevilleوالجغرافيون أمثال هنري دو فييريي Henri Duveyrier الذي سميت عليه ثانوية البليدة (ابن رشد) ، وكذا صنف النواب وقد مثلوا الصنف الأكثر عناية بالحضور إلى الجزائر والكتابة عنها ووصفها ،وقد زاحموا في هذا عدد الأدباء، هؤلاء الأخيرين الذين برز منهم أمثال بيار لوتي Pierre Loti وتيوفيل قوتييهThéophile Gautier وغوستاف فلوبيرGustave Flaubert وغي دو موباسان Guy de Maupassant وفيكتور هيغو واندري جيدAndré Gide [3] وغيرهم .

و يعد جون أندري بيسونيل Jean André Peyssonnel1694- 1759 من أوائل الرحالة المسيحيين الذي زاروا وجالوا بلاد الجزائر أوائل القرن 18، وبالتحديد سنة 1725، وقد سجل كل مشاهداته التي وقّع عليها ملاحظاته وانطباعاته من خلال كتابه Voyage dans les région de Tunis et d’Alger فقد ركّز و دوّن كغيره العادات والأعراف ووصف الأحجار والأشجار والنبات والحيوان، وكل ما يلفت الانتباه ويؤدي غرض الاستكشاف والحصول على المعلومة التي يبنى عليها أحكاما .

وفي مطلع عام 1832 قام أوجين دو لاكروا Egéne Delacroix 1798 -1863 برحلة قادته إلى منطقة الشمال الإفريقي، فنزل أولا بمدينة طنجة، ثم واصل مسيره بعد 18 جوان نحو وهران فالجزائر العاصمة ووثّق زيارته من خلال العديد من اللوحات التي كان من اشهرها (Femmes d’Alger dans leur appartement) التي انتهى منها سنة 1834[4].

أما ألكسي دو توكفيل 1805-1859 فقد قام بزيارة إلى الجزائر رفقة زوجته، ودوّن مشاهداته ووضع ملاحظاته من خلال العديد من المؤلفات جاءت بعناوين مختلفة منها رسالة حول الجزائر Lettre sur L'Algérie، وملاحظات عن رحلة إلى الجزائر(notes du voyage en Algérie)، وتقارير عن الجزائر 1847Rapports sur L'Algérie. وقد أثار – على سبيل المثال لا الحصر- مسألة الأوقاف ،مثلما زار لويس فويوLouis Veuillot 1813- 1883 الجزائر برفقة الجنيرال بيجو ، ودوّن ملاحظاته عن الجزائر في كتابه (الفرنسيون في الجزائر(Les Français en Algérie) والذي تمّ طبعه سنة 1853.

عرف القرن ال19 هكذا توافدا منقطع النظير للأدباء الفرنسيين والفلاسفة والرسامين والمفكرين والبرلمانيين وحتى رجال الكنيسة الفرنسيين وغيرهم، وكان أغلب هؤلاء في مهمة نبيلة بالنسبة لفرنسا، ألا وهي التعريف بالجزائر للأوربيين والفرنسيين تحديدا، و تشجيعهم على شد الرحال نحو هذا الوطن لذي بنت عليه فرنسا الكثير من أحلامها السياسية، وأطماعها الاقتصادية, وأغراضها الاجتماعية الاستيطانية، ومراميها الدينية الكنسية. وهو ما فعله -مثلا تحديدا – لويس ماري الفونسو دودييه[5]

2- **لويس ماري ألفونسو دودييه (Louis –Marie Alphonse Doudet):**

كان مولده في13 ماي 1840، بمدينة نيم Nîmes ، وكانت وفاته في 16 ديسمبر 1897، عن عمر 57 سنة، وهو ينحدر من أسرة برجوازية كاثوليكية المذهب، كان ولده فانسونVincent مدير معمل لتصنيع الحرير وتاجرا مغامرا[6] ، تزوج من "أدلين رينو " (Adeline Reynaud)سنة 1830 وأنجب منها 15 ولدا لم يبق منهم سوى 4 وهم هنري Henri وارنيست Ernest والفونس Alphonse وآناAnna ، وقد تحصل ألفونس دودييه سنة 1850 على منحة تسمح له بمزاولة دراسته بثانوية امبيرAmpère في مدينة ليون والتي استمر بها إلى غاية عام 1850 حيث توقف عن الدراسة بسبب ظروفه الاسرية، وفي 1857 وبدعم من أخيه الصحفي "أرنست" تنقل الى باريس أين التقى بالفتاة "ماري ريوMarie Rie" التي ارتبط بها لعدة سنوات، ولكن زواجه كان بالكاتبة" جوليا ألار" Julia Allard سنة 1857، وفي 1858 نظّم أولى محاولاته الأدبية المعروفة بـ "ديوان العاشقات"Les Amoureuses، وهو الذي نال به شهرة خاصة عند الامبراطورة "أوجينيEugénie"،زوجة نابليون الثالث، والتي عينته دوقا. وفي عام 1859 نشر في صحيفة فيغارواFigaro عددا من الحكايات المثيرة.

التقى دودييه في 1860بالكاتب واللغوي والشاعر «فريدريك ميسترال "(Frédéric Mistral)[1] محيي اللغة البروفنسالية Langue Provençale وأدبها في القرن 19، وقد تأثر بفكره وأسلوبه في الكتابة، فجاءت قصصه ورواياته التي نشرها في" باريس جورنال" (Paris Journal) "ولوموند إليستري" (Le Monde Illustré) تصور اتجاهه الأدبي الذي يتميز بالميل نحو الواقعية والجاذبية والتشبه بالطبيعة والدعوة إلى البساطة. كما تعرف دودييه إلى "إميل زولا" رائد المذهب الطبيعي للأدب وصاحب رائعة جرمينال في فرنسا و"غوستاف فلوبير" و"ايفان تورغنيف" و "ادموند دي غونكور"، هؤلاء الذين أثروا فيه وفي كتاباته[7]. قال فيه الاديب والصحفي الفرنسي " اميل زولا" Emile Zola في كتابه 1880 Le roman expérimentale "لايقص رواية ، او يقدم شخصية إلاّ اذا تقمصها بشكل كامل ، بحيوية ، سخرية ،دعابة ، ولطافة ."[8]

4- **أهم مؤلفاته:** جاءت مؤلفات دودييه لتعبر عن تصوراته وجميع مكنوناته، ومنها :

- المعبود الأخير(La dernière Idole) 1862

- القرنفلة البيضاء (L’œillet blanc) 1867

- الغائبون (les absents)

- صافو(Sapho)

- الشيئ الصغير Le Petit chose 1868

- رسائل من طاحونتي Lettres de mon Moulin 1869

- الأرلزيية L’Arlésienne 1871

- المغامرات العجيبة لتراتران دو تار سكون Les Aventures prodigieuses de tartarin de Tarascon 1872

- حكايات الاثنين Les contes de Lundi1873

- فرومون الشاب وريوليه البكرé Fremont jeune et Risler ain 1874

- النباب Le Nabab1877

جاكJack 1876

- نومة روميستا Numa Roustan1881

- الإنجيلية L’évangéliste1883

- الأبرشية الصغيرة La petite Paroisse1884

- روز و ننيت Rose Ninette 1892

- ذكريات أديب 1888

- أبناء وأمهات 1889

- صراع من أجل الحياة La lutte pour la vie 1889

5- نماذج عن امثاله Citations

- La gourmandise commence quand on n’a faim
- La haine ,c’est la colère des faible .
- Qui connait sa langue possède la clef de sa prison.
- La meilleure façon d’imposer une idée aux autre ,c’est de leur faire croire qu’elle vient d’eux.

(9)

5- **رحلة دوديه إلى الجزائر**:

كان دافع الرحلة نحو الجزائر بحسب العديد من الدراسات هو المغامرة والاستكشاف والاستشفاء من "داء السل"[10]، وهذا ما ذكره هو الاخر في كتابه" ثلاثون سنه من باريس"[11]وقد استعان في رحلته على مدونات العسكريين وقصص المغامرين والجغرافيين، بالإضافة إلى ما كتبه العلماء والأدباء الذين زاروا الجزائر، وهذا ما عبرعنه في قوله :

« IL est bien clair, en effet , que l'on ne s'embarque pas pour une expédition semblable sans prendre quelques précautions, il faut savoir où l'on va ,que diable !et ne pas partir comme un oiseaux . »[12] و يواصل قائلا

« Les relations de Mungo-Park ,de Caillé, du Docteur Livingstone, d'Henri Duveyrier, la , il vit que ces intrépides voyageurs ,avant de chausser leurs sandales pour les excursions lointaines, s'étaient préparés de langue main à supporter la faim ,les ,la soif ,les marches forcées , privations de toutes sortes[13]…… »

استعان" الفونس دودييه" بكتابات الجنرال "دوماس" Daumas ومنها :

"Le Grand Désert" 1857 الصحراء الكبرى " La vie arabe et la société Musulmane" 1869 الحياة العربية والمجتمع الإسلامي

"Mœurs et coutumes de L'Algérie"1853.

بالإضافة الى كتابات أخرى منها :

- "Lettres sur L'Algérie " Xavier Mariner.

- "Les oasis dans la montagne " Odette Keun.

- "Notes de route Maroc-Algérie-Tunisie " Isabelle Eberhart" .Etude sur L'Algérie" Ernest Feydeau. [14]

اعتمد ألفونس دودييه على تجاربه الخاصة، فاعتبر بذلك من الأدباء المتميزين بالواقعية فيما نقلوه عن رحلتهم إلى الجزائر، غير انّ الكثير مما سجله في ما يتعلق بالجزائري يتنافى تماما وهذه الشهادة – الواقعية والصدق –[15] وهذه المقولة تؤكد ذلك

« une bande de sauvage ,encore plus hideux que les forbans ……. » [16]

"عصابة من المتوحشين ، البشعين والسوقين ." و هكذا وصف سكان الجزائر بمجرد نزوله من السفينة و الحماية التي كان يحظى بها الاوربيين في الجزائر مما وصفهم- بالمتوحشين- قول

« …..Heureusement qu'un petit homme, d'une tunique à collet jaune, et armé d'une longue canne de compagnon ,intervint comme un-Dieu- ……dispersa toute cette **racaille à coup de bâton. »** [17]

استغرقت رحلة" الفونس دوديه" شهرين ذهابا وإيابا. وتعد كتاباته من المصادر المهمة في كتابة تاريخ الجزائر في ق 19. انطلقت هذه الرحلة بحرا من مرسيليا نحو مدينة الجزائر العاصمة،في 21 ديسمبر 1861، و استغرقت ثلاثة أيام،وأطلق على هذه الرحلة "عند القتلة " chez les tueurs ، وحينما وصل الجزائر العاصمة وصفها قائلا:" في جو حار كانت فيه الشمس تلسع أرصفة الميناء على الرابعة مساء، تراءت أمامنا الجزائر البيضاء، فوق هضبة بمنازلها المتراصة الصغيرة.."[18]

« En face, sur une colline, Alger la blanche avec ses petites maisons d'un blanc mat qui descendent vers la mer ,serrées les unes contre les autre,un étalage de blanchisseuse sur le coteau Mendon , par là-dessus un grand ciel de satin bleu, oh !mais si bleu . »

ثم نقل مشهدا اخر عند نزول المسافرين من الباخرة قائلا"عند الوصول الى الجزائر بدأ الصراخ بحمل السلاح بسرعة ،وتم الهجوم على القراصنة ، لكن سرعان ما خرج القبطان ليطمئن المسافرين قائلا لا وجود للقراصنة منذ زمن "

« ….ce ne sont pas des pirates…..il ya longtemps qu'il en a plus de pirates…. »[19]

6- وصفه مدينة الجزائر:

بدأ الفونس دوديه زيارته من مدينة الجزائر برفقة صديقه وقريبه رينو(Reynaud) وهو الملقب بصياد الأسود، وقد كانت القصبة أولى المواقع والمناطق التي زارها مرتديا اللباس التقليدي للسكان (مع حزام أحمر وشاشية)وقد نزل في فندق أوروبا (L'hôtel de L'Europe) وهناك بقي يومين ثم انطلق في جولة قادته إلى متيجة وتحديدا الى البليدة ثم عرج نحو مليانة ومنطقة الشلف والتي يذكر بأنه قضى بها عطلة مريحة جدا، اكتشف فيها على عادات المنطقة، وكل ما يوصف به السكان من ألبسة وغيرها [20]

كما قام – أثناء ذلك – بزيارة لبعض الشيوخ ومنهم (سي سليمان) و(سي عمر) اللذان بادرا إليه بتحضير مائدة طعام – وفق ما جرت به العادة عند نزول الضيوف الأجانب- وقد وصف تلك الأطباق المقدمة إليه بالتقليدية " الدجاج باللوز، والكسكس و كعك بالعسل، والمربى- بالإضافة طبعا إلى القهوة- وكل ذلك تحت أنغام الغناء المصحوب بالدربوكة[21]

وهو يتحدث عن الجزائر ذكر دوديه أنها من أكثر المدن جاذبية وبهاء، وقد وصف موقعها الجغرافي ومناخها وعاداتها وتقاليدها ومعتقدات سكان الحاضرة، كما أشار إلى أشهر أحيائها والمقصود قصبتها وباب عزون فذكر أزقتها الضيقة والمستقيمة و المكتظة في روعة من الجمال ، بالقاطرة و العربات التي تجرها الثيران ،وأخرى تجرها احصنة ،تتخلل هذه الازقة الضيقة دكاكين عدد من اليهود المتمركزين في زوايا الشارع –باب عزون- هؤلاء اليهود يترصدون المارة حتى تخالهم كما العنكبوت، (وهو الوصف نفسه الذي أطلقه غي دو موباسون على يهود بوسعادة خلال رحلته الى الجزائرسنة1882.) تتخلل هذه الشوارع فرق المجندين في جيش افريقيا، وقطعان من الحمير، وأفارقه يبيعون الرغيف، وسيارات لمهاجرين من الالزاس ، وفرق من الصبايحية بمعاطفهم الحمراء كل هذا يتحرك وسط زوبعة من الغبار[22]. وذكر في وصف مدينة الجزائر قائلا:"هذه المدينة المرتفعة بأزقة ضيقة مظلمة تتخلل صفين

من المنازل الغريبة mystérieuse التي تزداد ضيقا الى ان تلتقي في نفق، أبواب سفلى ونوافذ صغيرة وصماء ، حزينة ومسيجة " [23].

كما أثاره سهل المتيجة وانبهر بمساحته الشاسعة ليعيد إلى الأذهان بعباراته على أنه بالفعل هو (خزان روما للحبوب)، وذكر بأنه أروع المناطق جمالا وأكثرها جذبا للأوربيين وأحسنها للراحة والاستجمام[24]

أما كلامه عن البليدة - والتي كانت من أهم المناطق التي زارها- حيث اجتمع بها مع قادة وضباط عسكريين، فتكلم عن تناوله وجبة الغداء معهم قبل أن ينطلق في جولة نحو شلالات شفة الشهيرة بأعداد القردة وغاباتها ووديها، وقد وصفها قائلا: " كان المنظر جد رائع، فعلى يمينك الجبال الشاهقة والصخور الكبيرة ونباتات شائعة كالخروب والنخيل وأشجار الزيتون" [25] ثم وصف مدينة البليدة قائلا : "أذكر بستان البرتقال عند مدخل البليدة، حيث الأوراق الداكنة الملساء ، والفاكهة ذات اللون البراق يداعبها النسيم العليل، والأزهار الجميلة التي تزين المكان"[26]. وقال أيضا واصفا مدينة البليدة "منطقة غاية في الجمال ،بنايتها مصممة بشكل منتظم ، محاطة بأقواس ، مليئة بأشجار البرتقال ، مناظرها جد رائعة ."[27]كان هذا قبل أن يتجه نحو مدينة مليانة.

7- ما جاء في ذكر مدينة مليانة:

حط الكاتب رحاله بمدينة مليانة قادما اليها من المتيجة، هذه المدينة الشهيرة بمنحدراتها وكثرة بساتينها ومزروعاتها المتمثلة في تلك الأنواع من الأشجار المثمرة كأشجار التين بأنواعها، مضافا إليها مزروعات اليقطين وعباد الشمس[28]،وقد عبر عن ذلك قائلا:"هذه المرة سآخذكم لقضاء اليوم في مدينة صغيرة وجميلة في الجزائر ،وهذا حتى نخرج عن المألوف" « cela nous changera un peu des tambourins et des cigales . »

ملاحظة مهمة: ذكر دودييه أن طوال مدة مكثه وإقامته بالجزائر وباستثناء بعض الأيام الممطرة(25 ديسمبر - 4،6، 8، جانفي - من 15 إلى 19 جانفي – من 14 إلى 22 فيفري) كان الجو معتدلا وبسبب قلة الأمطار تمّ تأجيل موسم الغرس الى غاية شهر فيفري، ولاسيما بضواحي مدينة مليانة، كما عبّر عن حرارة الجو التي لا تطاق[29].

وفي تصريح له معبرا عن _تضامنه _مع الأهالي الجزائريين يقول: " أيه...ها أنا في الجزائر، كأنني أعيش حياة سلطان من العصور الخوالي..."[30]،غير أنه في ما بعد سيعود الى وصف أهلها بالمتخلفين والعفنين .

1-وصف المدينة :

وصف المدينة بأنها مدينة صغيرة وجميلة ، شوارعها واسعة مليئة بأشجار متنوعة تتخللها سواقي ،وقد ذكر الأجواء العامة عند نزوله بمدينة مليانة قائلا :" السماء تكتسي لونا رماديا يبد و أنها ستمطر، قمم جبال زكار اكتست السواد، إنه الاحد الحزين، بدأت بعض القطرات تتساقط .....كل قطرة ماء تسقط تشكل نجما واسعا وسط الغبار المكدس منذ تساقط الامطار في السنة الماضية ....."[31]

ويذكر أنه عند دخول مدينة مليانة في بداية النهار، أصابته مشاعر وهواجس الحذر والخوف من هذه المدينة المتحصنة وراء أسوارها العربية، لكنه سرعان ما زالت مخاوفه وهواجسه، وتبددت في

نهاية النهار بعدما اطمأنت نفسه إلى أن المدينة خاضعة مستسلمة للفرنسيين[32]وهكذا عبر ألفونس دودييه عن إعجابه بالفضاء الطبيعي لمدينة مليانة، وقد سحرته مناظرها فاهتم بوصفها، وأكثر ما كان يثير إعجابه هو تلك المناظر الطبيعية [33] في حين أنه كان لا يولي أي اهتمام بالإنسان المليانى والجزائري وبحياته البائسة في ظل الاحتلال الفرنسي، وأكثر من ذلك فهو يستعمل أسلوب السخرية والاستهزاء واصفا سكان الجزائر .

2-وصف الولي الصالح :وصف الولي الصالح (سيدي أحمد بن يوسف) بأبشع الصور مستعملا أسلوب الاستهزاء والسخرية ،-رغم ما للمدينة من تاريخ يشهد له – وهذا قد نفسره بالتعصب الديني فالفونس دودييه من أسرة مسيحية كاثوليكية متعصبة ، ومما ذكره عن الولي قوله: «المرابط المسكين، من قال منذ 30 سنة إنّ ضريحه سيكون مركز اطلاق أجراس كنيسة مليانة ."[34]

3-وصف الحياة الاجتماعية :

أشار الاديب الفرنسي إلى الواقع الاجتماعي لدينة مليانة ولخص بعض المشاهدات التي وصف من خلالها عددا من المظاهر في المجتمع المليانى بكلام لم يخلو في الغالب من أسلوب السخرية والاستهزاء، خاصة عندما يتعلق الأمر بالجزائري ومن ذلك قوله:

_"بعض الأطفال العرب تقريبا عراة، يلعبون في ركن من الشارع، في جو من الصخب والصراخ....."

_"شيخ يهودي ، خرج ليجمع أشعة الشمس ، التي تركها بالأمس في هذا المكان ، وقد تفاجأ بعدم وجودها ....."

_مشهد امرأة مكشوفة الرقبة والرجلين - على حد قوله- الخلخال في يديها ورجليها، تغني بنبرة غريبة ، ترّضع صغيرها الذي تحمله بيد وفي نفس الوقت - وباليد الأخرى- تقوم بطحن الشعير من خلال مطحنة حجرية ." [35]

_تحدث عن هجوم الجراد دون ذكر تأثير ذلك على الجزائريين ومعاناتهم ، في حين اعتبر ذلك سببا في مأساة المستوطنين « Deux compagnies de turcos clairous en tête arrivèrent au secours des malheureux colons »[36]

4-وصف المكتب العربي :

يظهر المكتب العربي بعلم فرنسا يرفرف فوقه ، تخاله للوهلة الأولى دار البلدية، والساحة المقابلة له مكتظة بالعرب ، حوالي خمسون شخص منحنين على طول الحائط في شبه غرفة انتظار بمسحة بدوية ، داخل المكتب مترجم مع اثنان من الفشلة المتخلفين _ جزائريين_ عراة يلتحفون بطانية قذرة ، متهمين بسرقة سبحة .[37]

5-وصف لقائه مع احد أعيان مدينة مليانة "السيد عمر " :

يقول في ذلك "اين سأقضي أمسية الاحد ، محل السيد عمر مفتوح اندخل ."[38]

" السيد عمر حانوتي ، وهو في الأصل امير ، فهو ابن داي سابق للجزائر ، قتل والده خنقا من قبل الانكشارية ، بعد وفاة والده ، احتمى بمدينة مليانة مع والدته ، وعاش في مدينة مليانة حياة الرفاهية وسط الكلاب والصقور ، ونساءه في قصور جميلة مليئة بأشجار الحمضيات و السواقي .

يذكر "الفونس دودييه " عن علاقة الأمير عبد القادر" بالسيد عمر " قائلا " عند دخول فرنسا، الى مدينة مليانة ، كان السيد عمر حليفا للأمير لكنه سرعان ما استسلم ، مما أدى الى شن الأمير حملة على مدينة مليانة ، واستولى على ممتلكات السيد عمر وقام بتخريب حدائقه وحجز احصنته ونساءه

وذبح والدته ، فكان غضب "السيد عمر "عظيم فجند نفسه لخدمة فرنسا ، وبعد هزيمة الأمير عاد الى مليانة .

رغم بلوغ "السيد عمر " ستون سنة من عمره ورغم بعض الوعكات الصحية التي كانت تصيبه ، الا انه بقي محافظا على سمات الشباب ، وهيئة امير دمرته الحرب ، فلم يبقى له من ثرواته الطائلة سوى ضيعة في مدينة الشلف وبيت في مدينة مليانة حيث يعيش حياة الرفاهية مع ثلاثة من أبنائه، وكان قليل الخروج من البيت ويكتفي بالجلوس في حانوته المتواجد على قارعة الطريق [39]

6-مجلس السيد عمر وأعيان مليانة:

كان السيد عمر يلقى الاجماع في ترأس مجلس أعيان مدينة مليانة، وكانت تعرض عليه القضايا لحلها بطريقة ودية دون اللجوء الى المحاكم ، ومما نقله "دودييه "ذكره حضور جلسة صلح جمعت بين احد القياد "قايد بني زقزوق" ويهودي من مدينة مليانة، حول قطعة أرض، تم استدعاء الشهود، وفجأة دخل اليهودي وحيدا دون شهود مصرا على أنه يفضل الاحتكام الى القاضي الفرنسي متجاهلا "السيد عمر" اليهودي رجل مسن بلحية كثيفة ،يرتدي معطف بني اللون وقبعة، رافعا أنفه الى السماء يحرك عيناه استصغارا للمجلس، مصرا على الاحتكام الى قاضي فرنسي [40]وإذا بأحد الشهود وهو اسباني يقوم من مكانه وينهال على اليهودي بالسب والشتم بكلام فاحش، دفع بابن السيد عمر الى ترك المجلس احتراما لوالده ، خرج اليهودي من المحل فلحق به الاسباني وانهال عليه ضربا امام اعين الناس على تنوع انتماءهم ملطيين ، اسبان ،افارقة ،وعرب ،وغيرهم [41]،وكان الحضور يبدي سروره لما لحق بهذا اليهودي ، وبعد مدة ينهض اليهودي ويطلب من الحضور ان يشهدوا بأن المسيحي قد اعتدى عليه، لكن رغم الحاحه لا أحد قبل أن يشهد معه ضد الاسباني .

نقل "الفونس دودي " المشهد الى حي اليهود، حيث قام اليهودي بتعبئة يهود الحي، وقد احدث ذلك ضجة كبيرة حيث كان الجميع يطالب بالثأر لليهودي ولليهود جميعا مؤكدين على أنّ القانون في صفه ، وبعد ذلك يتوجه أحدهم الى الكاتب قائلا : Tu vois ! Les pauvre juifs , comme on les traite ! c’est un vieillard !regarde ,ils L’ont presque tué [42]

7-الغداء عند السيد عمر :

وصف جلسة العشاء عند" السيد عمر " قائلا :"القاعة المخصصة للأكل تطل على ساحة ذات رونق متميز ، غاية في الجمال ، الوجبة تركية رائعة ،تضمنت طبق الدجاج باللوز و الكسكس بالفانيليا ، وبسكويت بالعسل ، إضافة الى الشراب (الكحول) الذي شرب منه "السيد عمر "رغم تحريم الشريعة الإسلامية له ، وكان يحتسي الخمر عندما يدير الخادم ظهره ، وبعد ذلك توجهنا الى قاعة أخرى حيث قدمت لنا القهوة مع المربى "[43] .

8-وصف مسرح مدينة مليانة :

بعد تناول وجبة العشاء توجه "دودييه " الى المسرح حتى يكمل سهرته، ذلك لأنّ السهرة توقفت عند "السيد عمر " عملا بعادات العرب، وقد وصف المسرح ذاكرا :"المسرح محل قديم للأعلاف ، الانارة فيه تقليدية ، يعرف ب"الفنار "الذي يوقد بالزيت ، القاعة يحيط بها ممر طويل مظلم ، حتى يخيل لنا اننا في الشارع ، العرض المسرحي كان قد انطلق عند وصولي ، وقد فاجئني هذا العرض بمستواه الجيد ، الممثلين اغلبهم رجال وهم جنود ، وكان اداءهم متميز ، امّا النساء فقد كان ادائهن غير مقنع تماما، وكان

أحسن أداء ليهوديتين من مدينة مليانة، كان والدا الفتاتين في القاعة لتشجيعيهما، متأكدين من كسب الملايين من الأموال (الدرو) بعد نهاية العرض المسرحي .[44]

كان اخر ما وصفه عند زيارته لمدينة مليانة هو الجراد الذي هجم على المدينة معددا الاضرار التي اصابت المستوطنين جراء ذلك ، دون الإشارة طبعا الى ما أصاب الجزائريين ولا حتى ذكر مساهمتهم ان Deux compagnies »لم نقل تكفلهم دون مقابل في محاربة الجراد ومما جاء في ذلك قوله : de ,clairous en tête , arrivèrent au secours des malheureux colons ……..[45]

أخيرا انتهى بعد هذه الجولة في مدينة مليانة من حيث بدء بوصف المدينة مرّة أخرى حيث يصف أجواء المدينة ويذكر عطر أشجار البرتقال و الأرز تتصاعد من المرتفعات (زكار) ، الأجواء رائعة ولطيفة السماء صافية ، ينتهي الطريق بصور مقدس تقصده النساء العربيات يوميا للنذر ، والتخلص من الشؤم.

ان دراسة الرحلات التي توجهت الى الجزائر طيلة فترة الاحتلال، تعد من المواضيع التي تتطلب اهتماما خاصا من قبل الباحثين في التاريخ لما لها من أهمية في ميادين ومجالات متنوعة، هذه الرحلات التي نقلت الكثير من الاحداث التي شهدتها الجزائر بما فيها مقاومة الشعب الجزائري وثورته ثورة 1954